

« هوذا الزارع قد خرج ليزرع »

بقلم: شكري حبيبي

يتساءل الكثيرون لماذا لا يُقبل الناس إلى الإيمان وبأعداد غفيرة؟ وما هي الأسباب التي تجعل البعض لا يتجاوب مع رسالة الخلاص المفرحة؟ لقد أجابنا الرب يسوع المسيح عن هذه التساؤلات بمثل الزراع (بشارة متى ١٣: ٣-٨، ١٨-٢٣). وفي هذا المثل، شبّه المسيح أنواع التربة التي يزرع فيها الزراع زرع، بأربعة أصناف من البشر، وكيفية تجاوبها مع بشارة ملكوت الله، أو بشارة الخلاص. بدأ المسيح هذا المثل بالقول: «هُوَذَا الزَّارِعُ قَدْ خَرَجَ لِيَزْرَعَ».

الصنف الأول: تحدّث المسيح عن الصنف الأول من البشر فقال: «وَفِيْمَا هُوَ يَزْرَعُ سَقَطَ بَعْضُ عَلَى الطَّرِيقِ، فَجَاءَتِ الطُّيُورُ وَأَكَلَتْهُ» وشرح بعدئذ لتلاميذه فقال: «كُلُّ مَنْ يَسْمَعُ كَلِمَةَ الْمَلَكُوتِ وَلَا يَفْهَمُ، فَيَأْتِي الشَّرِيرُ وَيَخْطَفُ مَا قَدْ زُرِعَ فِي قَلْبِهِ. هَذَا هُوَ الْمَزْرُوعُ عَلَى الطَّرِيقِ». إذن هناك من يسمع بشارة الخلاص، ولا يفهم أي شيء منها، ولا يستطيع استيعابها. وقد علّل المسيح ذلك بأن الشرير يأتي ويخطف ما قد زرع. وهذا النوع من البشر غالباً ما نصادفه. فكثيرون من الناس عندما نحدّثهم عن بشارة الخلاص المجاني، نراهم لا يفهمون شيئاً مما نقوله، وكأننا نحدّثهم عن عالم آخر غريب ومجهول بالكلية بالنسبة لهم. ويبدو وكأن جداراً كبيراً قد فصل بيننا وبينهم، ولا يريدون أن يسمعوا. وهذا الوصف ينطبق بالتمام عمّا ذكره الرسول بولس فيما بعد عندما كتب قائلاً: «وَلَكِنْ إِنْ كَانَ إِنْجِيلُنَا مَكْتُومًا، فَإِنَّمَا هُوَ مَكْتُومٌ فِي الْهَالِكِينَ، الَّذِينَ فِيهِمْ إِلَهُ هَذَا الدَّهْرِ قَدْ أَعْمَى أَدْهَانَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، لِئَلَّا تَضِيءَ لَهُمْ إِنَارَةُ إِنْجِيلِ مَجْدِ الْمَسِيحِ، الَّذِي هُوَ صُورَةُ اللَّهِ» (٢كورنثوس ٤: ٣ و ٤). إن إبليس قد أعمى أذهان الناس غير المؤمنين لئلا يفهموا بشارة الخلاص، فتستتير أذهانهم بنور الإنجيل المشع.

الصنف الثاني: قال الرب يسوع عن هذا الصنف من البشر: «وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى الْأَمَاكِنِ الْمُحْجَرَةِ، حَيْثُ لَمْ تَكُنْ لَهُ تَرْبَةٌ كَثِيرَةٌ، فَنبَتَ حَالًا إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عُمُقٌ أَرْضٍ. وَلَكِنْ لَمَّا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ احْتَرَقَ، وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَصْلٌ جَفَّ». وشرح المسيح لتلاميذه فيما بعد عن هذا الصنف من الناس فقال: «وَالْمَزْرُوعُ عَلَى الْأَمَاكِنِ الْمُحْجَرَةِ هُوَ الَّذِي يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، وَحَالًا يَقْبَلُهَا بِفَرَحٍ، وَلَكِنْ لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ فِي ذَاتِهِ، بَلْ هُوَ إِلَى حِينٍ. فَإِذَا حَدَّثَ ضَيْقٌ أَوْ اضْطِهَادٌ مِنْ أَجْلِ الْكَلِمَةِ فَحَالًا يَعْثُرُ». وهذا النوع من الناس نراه بشكل خاص في الأشخاص الذين يترددون إلى الكنائس، ويسمعون بشارة الخلاص ويقبلونها بفرح، لا بل قد يعلنون إيمانهم بالمسيح. لكن مشكلة هؤلاء الناس أنهم غير مستعدين أن يدفعوا الثمن. فإذا تعرّضوا لأي اضطهاد، أو حتى لاستهزاء الناس بهم تراهم يتراجعون.

الصنف الثالث: تحدّث المسيح عن هذا الصنف قائلاً: «وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى الشُّوْكِ، فَطَلَعَ الشُّوْكُ وَخَنَقَهُ». وأوضح المسيح عن هذا الصنف بقوله: «وَالْمَزْرُوعُ بَيْنَ الشُّوْكِ هُوَ الَّذِي يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، وَهُمْ هَذَا الْعَالَمُ وَعُرُورُ الْغِنَى يَخْنَقَانِ الْكَلِمَةَ فَيَصِيرُ بِلَا ثَمَرٍ». وهذا الصنف من الناس هم الذين يستجيبون لبشارة الخلاص في البداية، لكن مشاغلهم الكثيرة، وسعيهم لجمع المال، يجعلان كلمة

الله بلا ثمر في حياتهم. وهذا النوع نجده أيضاً بين الناس الذين يترددون إلى الكنائس، فقد يتحمسون للسير في طريق الإيمان، لكنهم لا يستطيعون. والسبب لأن هناك أموراً أخرى تحد من اندفاعهم، وتقف حائلاً دون تجاوبهم مع عمل الروح القدس.

الصف الرابع: وهنا نأتي إلى الصف الرابع والأخير من البشر، والذي يتجاوب مع عمل الروح القدس ويؤمن ببشارة الخلاص، فيأتي بالثمر. إذ قال المسيح: « **وَسَقَطَ آخِرُ عَلَى الْأَرْضِ الْجَيِّدَةِ فَأَعْطَى ثَمَرًا، بَعْضُ مِئَةٍ وَآخَرُ سِتِّينَ وَآخَرُ ثَلَاثِينَ** ». وقد شرح المسيح عن هذا الصف الأخير من البشر، فقال: « **وَأَمَّا الْمَرْوَعُ عَلَى الْأَرْضِ الْجَيِّدَةِ فَهُوَ الَّذِي يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ وَيَفْهَمُ وَهُوَ الَّذِي يَأْتِي بِثَمَرٍ، فَيَصْنَعُ بَعْضُ مِئَةٍ وَآخَرُ سِتِّينَ وَآخَرُ ثَلَاثِينَ** ». من الواضح أن هؤلاء هم الأشخاص الذين يتجاوبون مع بشارة الخلاص، وعمل الروح القدس في قلوبهم، ويقبلون نعمة الله المخلصة. ولهذا لا بد أن يظهر ثمر النعمة في حياتهم.

إن هذه الأصناف الأربعة من البشر، كما شرحها الرب يسوع المسيح، تفسر لنا لماذا لا يتجاوب الجميع مع بشارة الخلاص المفرحة. وأنه علينا أن لا نستسلم لليأس والفشل عندما لا نرى نتائج باهرة وعظيمة، في قبول وإيمان جماهير غفيرة لبشارة الخلاص المفرحة. وتجعلنا نتأكد أن ملكوت الله لا بد أن يمتد وينمو. لقد سبق الله أن وعد قائلاً: « **لَأَنَّهُ كَمَا يَنْزِلُ الْمَطَرُ وَالتَّلْجُ مِنَ السَّمَاءِ وَلَا يَرْجِعَانِ إِلَى هُنَاكَ، بَلْ يُرْوِيَانِ الْأَرْضَ وَيَجْعَلَانِا تَلْدًا وَتَنْبِتُ وَتُعْطِي زَرْعًا لِلزَّرَاعِ وَخُبْزًا لِلْآكِلِ، هَكَذَا تَكُونُ كَلِمَتِي الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ فَمِي. لَا تَرْجِعْ إِلَيَّ فَارِغَةً، بَلْ تَعْمَلْ مَا سُرَرْتُ بِهِ وَتَنْجَحْ فِي مَا أَرْسَلْتُهَا لَهُ** » (إشعيا ٥٥: ١٠-١١). إن كلمة الله أو بشارة الخلاص التي تُنشر كل يوم، عن طريق الوعظ، ووسائل الإعلام المختلفة، لن ترجع فارغة، بل تعمل عملها في قلوب الكثيرين من البشر. وهو الذي تأكد صحته في العقود الأخيرة عندما أثمرت كلمة الله، في قلوب أناس كنا نظن أنه من المستحيل عليهم أن يقبلوا نعمة الله المخلصة. ولهذا علينا أن نتق أن كلمة الله تعمل عملها في قلوب الكثيرين هذه الأيام، حتى وإن كنا لا نلاحظها.

قارئ العزيز، دون الدخول في متاهات الجدل اللاهوتي، بين اختيار الله المطلق ومدى حرية الإنسان، إن الأمر الواضح من كلمة الله، هو أن الله يعمل بواسطة الروح القدس في قلوب البشر، وما على الإنسان إلا أن يتجاوب مع نعمة الله. وهذا التجاوب يتجلى بالإيمان، أي بتصديق كلمة الله. وها هو الرسول بولس يكتب قائلاً: « **لَكِنْ مَاذَا يَقُولُ؟ «الْكَلِمَةُ قَرِيبَةٌ مِنْكَ، فِي فَمِكَ وَفِي قَلْبِكَ» أَي كَلِمَةُ الْإِيمَانِ الَّتِي نَكْرَهُ بِهَا. ^٩ لِأَنَّكَ إِنْ اعْتَرَفْتَ بِفَمِكَ بِالرَّبِّ يَسُوعَ، وَأَمَنْتَ بِقَلْبِكَ أَنَّ اللَّهَ أَقَامَهُ مِنَ الْأَمْوَاتِ، خَلَصْتَ. لِأَنَّ الْقَلْبَ يُؤْمِنُ بِهِ لِلْبِرِّ، وَالْفَمَ يُعْتَرِفُ بِهِ لِلْخَلَاصِ. لِأَنَّ الْكِتَابَ يَقُولُ: «كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ لَا يُخْزَى»... لَكِنْ لَيْسَ الْجَمِيعُ قَدْ أَطَاعُوا الْإِتْجِيلَ، لِأَنَّ إِشْعِيَاءَ يَقُولُ: «يَا رَبُّ مَنْ صَدَقَ خَبْرَتَانَا؟» إِذَا الْإِيمَانُ بِالْخَبْرِ، وَالْخَبْرُ بِكَلِمَةِ اللَّهِ (رومية ١٠: ٨-١١، ١٦-١٧).**

ومن جهة أخرى لقد صرّح الرب يسوع المسيح قائلاً: «وَهَذِهِ هِيَ الدِّيُونَةُ: إِنَّ النُّورَ قَدْ جَاءَ إِلَى الْعَالَمِ، وَأَحَبُّ النَّاسِ الظُّلْمَةَ أَكْثَرَ مِنَ النُّورِ، لِأَنَّ أَعْمَالَهُمْ كَانَتْ شَرِيرَةً. لِأَنَّ كُلَّ مَنْ يَعْمَلُ السَّيِّئَاتِ يُبْعِضُ النُّورَ، وَلَا يَأْتِي إِلَى النُّورِ لئَلَّا تُوَيِّحَ أَعْمَالُهُ. وَأَمَّا مَنْ يَفْعَلُ الْحَقَّ فَيُقْبَلُ إِلَى النُّورِ، لِكَيْ تَظْهَرَ أَعْمَالُهُ أَنَّهَا بِاللَّهِ مَعْمُولَةٌ» (بشارة يوحنا ٣: ١٩-٢١).

وماذا عنك قارئ العزيز، من أي صنف من البشر أنت؟ هل أنت من الصنف الأول الذي أعمى إبليس ذهنه؟ أم من الصنف الثاني الذي هو غير مستعد أن يدفع الثمن ويواجه الضيقات والآلام؟ أم من الصنف الثالث الذي يترك هموم العالم وغرور الغنى يخنقان كلمة الله؟ أم تراك من الصنف الرابع والأخير الذي يتجاوب مع عمل روح الله القدوس وبشارة الخلاص المفرحة ويؤمن بها؟ أرجو أن تكون من هذا الصنف الرابع الذي يقبل نعمة الله في حياته وخلصه المجيد. وهكذا تحظى بالغفران الكامل، وتنال الحياة الأبدية، وتختبر الحياة الروحية الجديدة بواسطة روح الله القدوس، فتأتي بالثمر الوفير.